هى لله !!

وقف جعفر بن سليمان مذهولاً حائراً ، يتطلع ذات اليمين فلا يرى غير إبل كثيرة ، ويتطلع ذات الشمال فلا تقع عيناه إلا على إبل كثيرة ، لايكاد يحصى عددها ، أخذت ترعى فى واد رحيب ، يضيق بها ضيقاً شديداً ، على اتساعه ورحابته ، وامتداد أطرافه ونواحيه . .

أخذت هذه الإبل ترعى الكلأ والعشب ،طليقة مرحة ، تبدو عليها علائم الصحة والقوة ، والسلامة والفتوة ، وكأنما بينها و بين المرض عهد وميثاق ، ألاّ يقربها فى يوم من الأيام ، أو يسىء إليها ، أو ينالها بشرّما ، أو يعيبها من قريب أو من بعيد . . ! !

وما أجمل هذا اللون من النعم ، حينما يتكاثر فى صحة وقوة ويتدافع بين الحين والحين فى سيره تدافع الموج ، يفيض بالخير ، ويغرق الإنسان فى جو جميل من الطمأنينة والشكر لله ، على هذا الفضل العميم . .

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

وأخذ جعفر بن سليمان يردد هذه الآيات ، خشية أن ينزغ الشيطان فى قلبه نزغا ، يكون من ورائه الشر ، فتصيب عينه هذه الإبل المرحة ، فتسوء العاقبة ، وهو لايرجو ذلك ، ولا يهدف إليه ، و إنما يتمنى ، من صميم

قلبه ، وسويداء فؤاده ، أن تبقى هذه الثروة الغالية ذخراً لصاحبها ، كما هى سليمة نامية ، صحيحة قوية . .

ولكن لمن هذه الثروة ؟ لمن هذا الكنز القيم ؟ لمن هذه الإبل الكثيرة الوفيرة ، التى هى فخر العربى ، يهيم بها حبا ، ويعتبرها دائما أقصى أمانيه ، ومنتهى آماله . . أقصى ما يتمناه من متاع ، ومنتهى ما يأمله من مال ، فهو لا يدين بالدرهم والدينار ، ولا تأسر صفرة الذهب ، أو رنين الفضة قلبه ، كما يأسره أطيط الإبل ، وتدافعها فى الوديان كالسيل الغامر ؟ !

لمن هذا الوادى الرحيب ، الذى يموج بالإبل ، يرتفع لها فى الجو أطيط ، يحرك أوتار القلوب العربية الصميمة ، ويدفع بها فى محيط كله النشوة الآسرة . . هذه القلوب التى تقدر هذا النوع من الحيوان قدره ، وتعرف له منزلته ومكانته ، وتعرف كذلك كيف تنتفع به انتفاعا عظيما ، يدر عليها وافر المال ، وطائل الربح الحلال ؟ !

لمن هذا كله يا ترى ؟ ألعدة أشخاص ينعمون به ، ويجعل منهم أغنياء أثرياء ، لا يزاولون عملا من الأعمال سوى إشرافهم على هذا الوادى العامر الجميل ؟ أم لشخص واحد لا غير ، يكفيه ليكون سعيداً ، ناعم البال ، أن ينظر إليه عند ما تشرق الشمس ، أو عند الأصيل ، وقد تهيأت الإبل للراحة والهدوء ؟ يكفيه ذلك ليكون أسعد السعداء ، وبخاصة إذا كان من الذين يعرفون واجب الله فى المال ، وحق الفقير والمسكين . .

و بنت مخاض ، وحقة ، وجذعة . . ليت له من جميع هذه الأنواع ، التى تدير رأسه بمنظرها الساحر الفتان ، لايعدله منظر فى الدنيا ، بحال من الأحوال . .

ثم أية سعادة كاملة تلك التى يشعر بها صاحب هذا الوادى العظيم ، وأية هناءة غامرة ترفرف عليه ، وتملك عليه نفسه وعواطفه ، وتجعله يعيش فى بحبوحة من الرفاهية والنعيم ، لايشعر بما يشعر به البائس والفقير ، وتبعده عن هموم الدنيا ، وأحزان العالم ، وترفعه فى أعين الناس درجات ودرجات ؟ !

ليته يسعد بواد كهذا الوادى ، على أن يبارك الله لصاحب هذه النعم فيما أعطاه ، وأن ينمى له ما تفضل به عليه ، فهو مسلم دون ريب ، عرف حق الله فى المال فأخرجه إلى مستحقه من فقراء ومساكين ، فربت أمواله وكثر ثوابه ، وعم خيره و إحسانه ، حتى أمن آفات القلوب المحرومة ، والأفئدة المكلومة ، والبطون الجائعة ، والجسوم العارية ، ولولا هـذا ، ولولا رضاء الفقير والمسكين ، لما رضى الله عليه ، ولما بارك له فيما أعطى ، وحفظ عليه ما وهب له . .

وما كاد جعفر بن سليمان يفيق من نشوة المال وحبه ، وسيطرته على القلوب ، كائنة ما كانت ، حتى رأى شبحا من بعيد ، جالسا على ربوة مرتفعة

لقد أسرع جعفر يعدو نحو هذا الشبح ، فإذا به أعرابى من المسلمين ، تبدو عليه سمات التوكل ، والاعتماد على الله ، إلى أبعد حد ، وأقصى غاية ، وتظهر عليه دلائل الرضا والقناعة ، وأنه شخص بعيد عن الدنيا ، ، لاحظ له فيها ، ولا نصيب له منها ، فهو يرتدى ثيابا لا تختلف عن ثياب الرعاة فى قليل ولا كثير ، ولكن إشراق وجهه ، وتقرح جفنيه ، وما هو فيه من تفكير عميق فى خالق السموات والأرض ، كل هذا يبعث فى نفس محدّثه الرهبة والجلال ، واحترام هذه النفس السامية ، ذات الروحانية الفياضة ، والنورانية الغامرة . ! !

وقف جعفر بن سليمان أمام هـذا الأعرابى ، وسأله فى رقة وأدب كبيرين ، وقد بدت عليه علائم العجب والدهشة :

— لمن هذه الإبل ؟ !

ولكن الأعرابى لم يجب ، وظل ساهما مفكراً ، لا يعرف كيف يتحدث ولا بماذا يجيب . . إن هذا السؤال كان ينبغى ألا يسأل ، لأنه يدل على جهل فاضح بحقيقة الأشياء ، أو على الأقل يدل على انصراف عن الحقيقة الثابتة التى يجب ألا تغيب عن ذهن أى إنسان كائنا ما كان ، ألا وهى الاعتراف بالله ربّا لكل شىء ، وخالقا لكل شىء ، ومالكا لكل شىء ، للإنسان والحيوان ، والنبات ، والكون بأسره سمائه وأرضه ، أفلاكه

منه وما سيوجد فيما بعد ، ما علم ومالم يعلم ، وسع علمه كل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء . . فما بال هذا السائل يغفل عن هذه الحقيقة الثابتة ، التي يجب ألا تغيب عن الأذهان ، مهما طغت عليها المادية الجارفة ، والحيوانية المارقة ، والبهيمية المدمرة ، والشهوانية الطاغية . وإلا فلا قيمة لشخص كائنا ما كان ، يغفل عن هذه الحقيقة الناصعة ، التي تضيء في كل قلب ، وتشع في كل فؤاد ، وكأنما تنبه إليها الأذهان والعقول على الدوام .. لا قيمة لأي شخص نسي خالقه وبارئه ، خالق الكون كله ، أرضه وسمائه ، بحاره وأنهاره ، نجومه وأفلاكه ، حيوانه ونباته ، سهوله وجباله ، وهو مالك هذا كله دون ريب ، بيده حياته وموته ، وإيجاده وإعدامه ، فكيف يغفل الإنسان عن هذه الحقيقة ، وكيف يشغل بما لا يصح أن يشغل به ، ولا يجوز أن يغفل عنه ؟ !

ما أحقر الدنيا ، يتكالب عليها طلابها ، تكالب الكلاب على الجيف ، ويتناحرون عليها تناحر الوحوش المجنونة على فرائسها ، دون أن يكون للعقل قيمة ولا مجال . .

يا لله ! إنه سؤال عجيب ، إن دل على شيء فلا يدل إلا على ظلمة القلب ، وانطماس البصيرة ، وسذاجة الفكر ، ثم هو بعد هذا دليل على الغفلة عن الحق ، والبعد عن الله ، وما أحراه بعدم الإجابة عليه ، والانصراف عن قائله ، والإعراض عن سائله ، حتى يشعر بخطئه ، ويعود

ولـكن الإعراض عن الناس ، والانصراف عنهم ، ليس من شيم رجال الله وأحبابه . . إن الغافل يجب أن يوقظ وينبّه ، والجاهل يجب أن يفهم ويعلَّم ، وإلا لخلق الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً فى درجة واحدة من العلم والمعرفة، وعلى قدم واحدة من القرب منه، والإخلاص له، والإقبال عليه ، وما ذلك على الله بعزيز ؟ !

حقاً يجب عليه أن يرشد السائل إلى الطريق المستقيم ، والصراط السوى ، وأن يفهمه الحقيقة الناصعة التى غفل عنها ، وأن يعلمه أن العبد وما ملك لله الخالق الأكبر ، وأن صفات الملـكية والامتلاك والملك والمالك لا يتصف بها فى الواقع ونفس الأمر إلا الله ، فهو المالك الحقيقى لجميع ما فى الـكون الصامت منه والناطق ، والساكن والمتحرك ، وأن من تمام الايمان وكمال الإسلام : ألاَّ ترى لنفسك بجانب ربك ومولاك سلطة بها تملك أو تتحكم ، لتعيش مطمئن القلب ، راضى النفس ، منشرح الصدر ، قرير العين ، فـكل شىء من الله ، وإلى الله ، وليس لك فى هذه الحياة نفوذ كائنا ما كان إلا بإذن الله وأمره .

وكان جعفر بن سليمان لايزال ينتظر الجواب على سؤاله ، وآلمه أن يُعرض عنه الأعرابى مفكراً إلى هذا الحد ، وخشى أن يكون قد نسى سؤاله ، أو لم يسمعه جيدا ، فقال له ثانية فى عزم وصراحة ولوم :

فقال الأعرابى فى اقتضاب وإخلاص :

— هى لله فى يدى . . ! !

... ...

... ...

وبهت جعفر بن سليمان ، وتملكته نشوة عجيبة ، وروحانية غامرة ، وانقض على يد الأعرابى يقبلها ، وعلم أنها الحقيقة الناصعة ، غفل عن إدراكها ، وكان من الواجب أن يذكرها على الدوام . . ! !